الطاعون بافريقية من خلال شواهد قبور قيروانية جديدة

لطفي عبد الجواد

مكلف بالبحوث بالمعهد الوطني للتراث

"وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما نكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه. فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة. وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك. وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة، لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم، وهو ظاهر. ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب. والله يقدر ما يشاء". (ابن خلدون، **المقدمة**)[1].

تقديم

بالإضافة إلى المعلومات التقليدية المتعلقة باسم المتوفى وألقابه وأصوله القبلية والجغرافية وقناعاته الفكرية والدينية ووظيفته أو حرفته، تتوفر نصوص شواهد القبور الإسلامية أحيانا على إشارات متفاوتة الدقة عن أسباب الوفاة وملابساتها. وتتراوح هذه الأسباب بين الاستشهاد في المعارك أو الصراعات الدائرة داخليا وخارجيا أو كذلك القتل المتعمد[2]. وتنفرد شواهد القبور القيروانية من بين شواهد بلاد المغرب العربي بذكرها لسبب آخر للوفاة يتعلق

---

[1] ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ت 808 هـ / 1406 م)، **العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الكتاب الاول، **المقدمة**، الجزء الأول، تحقيق ابراهيم شبوح و إحسان عباس، تونس، الدار العربية للكتاب، دار القيروان للنشر، الطبعة الأولى، 2006، ص. 518-519.

[2] انظر : ROY (Bernard) et POINSSOT (Paule), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, vol. II, fasc. 1, C. Klincksieck, Paris, 1950, n°201 ("قبر طيب بن علي توفي مقتولا في شهر صفر من سنة سبع وأربعمائة قتله المجوس").

ROY (Bernard) et POINSSOT (Paule), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, vol. II, fasc. 2, C. Klincksieck, Paris, 1958, n°317 ("قبر محمد ابن زياد توفي في جامع القيروان مقتولا للجمعة لشهر ربيع الأخر سنة سبعة وعشرين وأربعمائة") et n°203 ("قبر عبد الله بن احمد بن حسين بن حــ...ن قتل مظلوما ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة سبع وأربع مائة")

ROY (Bernard) et POINSSOT (Paule), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, 3ème partie, publiée avec le concours de S. M. ZBISS, Notes et Documents, 3ème série, vol. 5, Institut National d'Archéologie et d'Art, Imprimerie al-ASRIA, Tunis, 1983, n° 573 ("قتلت بلا ذنب وأسكنت بلقعا من الأرض ... فلا رحم الرحمن من كان قاتلي ولا زال في طول الحياة نحيس ... قبر أبو علي حسن بن علي بن معي النصر بن السلطان تميم بن المعز توفي شهيدا يوم الأحد السابع وعشرين من صفر من سنة ثمانية وخمسين وخمسمائة")

بانتشار الوباء القاتل بإفريقية في دورات مختلفة أولاها طاعون 872-873 هـ / 1468-1469م والثانية طاعون 981 هـ / 1573 - 1574م والثالثة طاعون 1199 هـ / 1784 - 1785م.

1- طاعون 872-873 هـ / 1468-1469م

تشير إلى هذا الطاعون ثلاثة نقائش اثنتان مؤرختان بين 10 رمضان و4 شوال من سنة 873 هـ / مارس-افريل 1469 م والثالثة اندثر تاريخها ولكن يمكن إدراجها ضمن هذا التاريخ على ضوء أسلوب كتابتها. وتشترك صيغ نصوص هذه النقائش مع صيغ النصوص السابقة أو المعاصرة لها. فقد استعملت فيها آيات قرآنية تؤكد على حتمية الموت بينما يشير احدها إلى إمكانية الابتلاء بالشر. وتشترك فيما بينها في اعتبار المتوفى بالطاعون شهيدا.

أما عن تاريخ 873 هـ / 1468-1469 م فهو مثبت في المصادر على انه عام فيه وباء عظيم. ويبدو ان هذا الوباء ظهر بالأندلس قبل افريقية وهو ما يدل عليه نقش محفوظ بمتحف قصر الحمراء بغرناطة مؤرخ بسنة 871 هـ / 1467 م[3]. وكان من بين أعظم أوبئة القرن التاسع الهجري[4]. ويشير الزركشي إلى انه "في ذي القعدة عام اثنين وسبعين ابتدأ الوباء بتونس ... ولم يزل يتزايد إلى شوال من عام ثلاثة وسبعين حتى بلغ ألفا كل يوم ثم ارتفع في ذي الحجة مكمل العام"[5]. ويذكر ابن عبد الباسط انه "فني في هذا الوباء جماعة من أهل المغرب وخلت الكثير من الديار ونجوع العرب"[6]. وأما ابن أبي دينار فيذكر انه "في هذه السنة عظم الوباء بتونس، قيل انه بلغ عدد الموتى به إلى 14 ألفا كل يوم وحصر في الزمام 400 ألف عدا من لم يدخل في الزمام نحو المائة ألف"[7]. وقد وردت في مناقب ابي القاسم المسراتي إشارة غير مباشرة إلى تفشي هذا الوباء بالقيروان[8]. واما ابن مريم فيذكر بدوره انه "كان الطاعون بالمغرب الأوسط سنة 871 هـ"[9]. ولم يكن هذا الوباء مقتصرا على بلاد المغرب وإنما كان ايضا ببلاد المشرق فقد ورد في مخطوطة الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم لابن عبد الباسط الظاهري في معرض حديثه عن أسير افتداه أثناء رحلته إلى تونس ووفاته عند وصولهما إلى القاهرة ("... ولا زال معي إلى أن وردتُ القاهرة فتُوفِّي بها في طاعونِ سنة ثلاث وسبعين"[10]). ويبدو أن طاعون سنة 873 هـ / 1468-1469م كان شديد

---

[3] انظر : Lévi-Provençal (Evariste), ***Iscriptions arabes d'Espagne***, Paris, 1931, t. 1, N° 185, p. 177-178.
"....هذا قبر السيد الامير الماجد الطاهر المعظم..... المرحوم ابي الحجاج يوسف ابن مولانا امير المسلمين ....المرحوم ابي النصر سعد .... وتوفي رحمه الله و....؟ شهيدا بالطاعون في اواخر شهر رمضان المعظم عام احد وسبعين وثماني مائة ...."

[4] انظر : السعداوي (أحمد)، "المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون : الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته، القرنين 8-9 هـ / 14-15 م"، **إبلا**، مجلد 58، العدد 175، ص. 124.

[5] ليس القصد من قوله "ثم ارتفع" الزيادة بقدر ما هو النهاية والتوقف. انظر: الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي، ت بعد 887 هـ / 1482 م)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق حسين اليعقوبي، تونس 1998، ص.315.

[6] الملطي (عبد الباسط بن الخليل ابن شاهين الحنفي)، **الروض الباسم في حوادث العصر والتراجم**، باريس 1936، ص. 136.

[7] ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، ت بعد 1110 هـ / 1690 م)، **المؤنس في أخبار افريقية وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967، ص. 158.

[8] المسراتي (جمال الدين محمد القيرواني)، **مناقب أبي القاسم المسراتي المعروف بصاحب الدربالة**، حققه وقدم له ووضع فهارسه أحمد الباهي، سوسة، 2009، ص. 65. "وكان أخي محمد مرض بالوباء واشرف على الموت فأتاه الشيخ رضي الله عنه وسأل عـن حاله فقلنا له : انه يعالج سكرات الموت" والشيخ هنا علي الخياط، وهو احد أولياء القرن التاسع هجري لذلك يرجح المحقق أن المقصود هو وباء 872-873 هـ / 1467-1469 م.

[9] ابن مريم (ابو عبد الله محمد بن محمد الشريف المليتي ت 1014 هـ / 1605 م)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 224.

[10] تدمري (عمر عبد السلام)، "مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، 866 ـ 871 هـ/ 1462 ـ 1467م"، **مجلة التاريخ العربي**، عدد 17، 2001، ص. 111.

الوقع على افريقية من بين كل الطواعين السابقة في دوراتها المتكررة ابتداء من الطاعون الجارف لسنة 748هـ / 1348 م مرورا بسنوات 764-765 هـ / 1363-1364 م و775هـ / 1374م و795-796 هـ / 1393-1394 م و802-804 هـ / 1400-1402 م و815هـ / 1413 م و846 هـ / 1443 م و857 هـ / 1453 م[11].

إن تركيز المصادر على تونس يعكسه الواقع الأثري وذلك من خلال تفوق هذه المدينة على القيروان من حيث عدد شواهد القبور الراجعة إلى فترة انتشار الوباء. فقد عثر إلى حد الآن على 13 شاهدا ينحصر تاريخها بين شهري صفر 872 هـ / 1467 م وذي الحجة 873 هـ / 1469 م [12] يضاف إليها شاهد مؤرخ بشهر شعبان 872 هـ / 1468 م لأحد الأمراء الحفصيين محفوظ في متحف "ڤرانيه" بمدينة "آكس- آن- بروفانص"[13]. ولكن المثير للجدل هو انه وبالرغم من هذا التفوق العددي لا يشير أي من هذه الشواهد إلى الوفاة بسبب الطاعون. والى هذا المستوى من البحث لم نعثر في مدونات بلاد المشرق او بلاد المغرب الإسلاميين الا على نقش أندلسي الأصل مؤرخ بسنة 871 هـ / 1467م يحمل هذه الإشارة. فهل أن الصدفة جعلت من وفاة كل هؤلاء وفاة طبيعية ؟ أم هل دفن آلاف موتى الطاعون الذين تشير إليهم المصادر الإخبارية في مقابر جماعية ؟ أم أن لذلك ارتباطا بمسائل فكرية أو عقائدية خاصة ؟

إن البحث في هذا الباب يظل على قدر من المجازفة وهو رهين النقص الكبير في المادة الأثرية التي من شأنها توفير قاعدة إحصائية سليمة قائمة على التواتر والتكرار. ولكن وجود شاهدين قبريين ضمن المجموعة القيروانية احدهما مؤرخ بأواسط رمضان والآخر بالثالث من شوال من سنة 873 / 1469 م لا يشيران إلى الوفاة بالطاعون[14] يجعلنا نرجح بان مسألة الإفصاح أو التكتم عنه مسألة اختيارية وليس لها علاقة بموقف جماعي أو جهوي معين. وتزداد هذه القناعة رسوخا إذا علمنا بان النصوص الجنائزية الخاصة لا تخضع في الغالب لمراقبة معينة وأنها لسان حال أصحاب القبور بالوصية أو لسان حال أهلهم من بعدهم أو كذلك لسان حال النقاشين لشواهد القبور. ويبدو أن هذه المسألة متعلقة بنظرتين كانتا سائدتين في العالم الإسلامي إزاء الكوارث الطبيعية والأوبئة وهما الظن بالعقاب في حالة الإخفاء والظن بمرتبة الشهادة في حالة الإفصاح، وهو ما يدل عليه الارتباط العضوي بين مصطلحي الطاعون والشهادة في نصوصنا. ويبدو ان هذه المواقف كانت قائمة على مستندات من السنة النبوية الشريفة. فقد ورد في صحيح البخاري في الحديث رقم 5732 "حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا عَاصِمٌ حَدَّثَتْنِي حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ قَالَتْ قَالَ لِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَحْيَى بِمَ مَاتَ قُلْتُ مِنْ الطَّاعُونِ. قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**". **وفي الحديث رقم** 5733 حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ

---

[11] انظر : BRUNSCHVIG (Robert), ***La Berbérie orientale sous les Hafsides, dès origines à la fin du XVè siècle***, t. 2, publications de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1947, p. 374. وحسن (محمد)، **المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي**، تونس 1999، ج 2، ص 605-618.

[12] انظر : El-Aoudi-Adouni (Raja), *Stèles funéraires tunisoises de l'époque hafside 628-975 / 1230-1574*, vol. 2, Tunis, 1997, p. 477-483, nos., 447 à 455

[13] انظر : VIRE (Marie-Madeleine), « **Inscriptions arabesdu Musée Granet à Aix-en-Provence** », *Arabica*, vol. 7, N°3, 1960, p. 307-308.

[14] **جاء في النص الأول ما يلي: "قبر الفقيه العلامة ابي عبد الله محمد بن ناجي التنوخي توفي رحمه الله في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثلاثة وسبعين وثمانماية وهو ..."** (انظر : ROY (B.) et POINSSOT (P.), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, 1983, n°600, p. 136) **وجاء في النص الثاني الذي لم ينشر بعد، وهو محفوظ بمستودع المعهد الوطني للتراث بالقيروان تحت رقم 134، ما يلي: "قبر الفقيه الصالح ؟ ابا اسحاق ابراهيم ابن الفقيه ... عرف التبر؟ توفي يوم الاحد لثلاثة ايام خلت من شوال عام ثلاثة وسبعين وثمانماية".**

سُمَيٌّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الْمَبْطُونُ شَهِيدٌ وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ". وفي الحديث رقم 5734 "حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ أَخْبَرَنَا حَبَّانُ حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي الْفُرَاتِ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْنَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ**"[15].

وأما قلة القبريات الراجعة إلى هذه الفترة فإنها تسمح بقبول فكرتين : أما الأولى فهي إمكانية حصول دفن جماعي بالنظر إلى كثرة الموتى حسب ما تذكر المصادر الإخبارية وهو ما يمكن استلهامه قياسا على نتائج الحفريات التي دارت في مدن أوروبية كالبندقية مثلا (سنة 2004) والتي عثر فيها على قبور جماعية تم تأريخها بطاعون 1575-1577. وأما الثانية فهي الدفن المستعجل بالنظر إلى اضطراب أحوال الناس وانشغالهم بتفشي الموت عن أعمال التخليد الاعتيادية وهو مؤشر يمكن استغلاله في التفطن إلى بعض مظاهر الفاجعة. ويبدو في المقابل أن الدفن الاستثنائي الذي اتخذ صبغة فردية تخليدية شمل الشخصيات القادرة ماديا أو المعروفة اجتماعيا وعلميا، فمن بين الأسماء المذكورة ضمن النقائش الراجعة إلى هذا التاريخ نجد "الفقيه" و"الفقيه الطبيب" و"الفقيه العلامة" و"الشيخ المقرئ" و"الفقيه القاضي المفتي" والمقرئ الخطيب و"الفقيه العالم" و"ابن القائد الأجل" و "ابن الأمير" ...

الوثائــق :

النص 1 (الصورة رقم 1)

المكان الاصلي : مقبرة الجناح الاخضر

المكان الحالي : مستودع اولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 550)

وصف المحمل : لوحة مستطيلة من الرخام الابيض الرمادي يبلغ ارتفاعها 93 صم وعرضها 26 صم، يعتريها التصدع والتآكل

وصف النص : ورد النص في 14 سطرا تفصل الواحد منها عن الآخر مسطرة رقيقة بارزة. وقد كتب بخط بارز نسخي لين ومعجم متآكل وعلى الاخص في طرفي اللوحة.

1. **بسم الله الرحمن الرحيم صلى اللـــ[ــه]**
2. **على النبي محمد واله وسلم**
3. **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم [بالشر و (هكذا)]**
4. **الخير فتنة وإلينا ترجعون لله العزة**
5. **والبقا وله ما ذرا وبرا وعلى خلقه**
6. **كتب الفنا وفي رسول الله صلى**
7. **الله عليه وسلم اسوة وعزا هذا قــ[ـبر]**

[15] البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل 194-256 هـ / 809-869 م)، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط. 1، 2002، ص. 1452.

8. **الفقيه الطالب الاجل الصالح ابـ[ــي]**
9. **عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه**
10. **الصالح أبي اسحق ابراهيم الربعـ[ـي]**
11. **توفي يوم الاربعا غرة شهر [رمـ]ـضان**
12. **المعظم شهيد الطاعون عام ثلا[ثة]**
13. **وسبعين وثماني ماية وهو يشهد ا**
14. **لا (هكذا) اله الا الله وان محمدا رسول الله**

ان المصادر الإخبارية لا تذكر ولو عرضا اسم المتوفى ولا اسم والده وذلك برغم انتسابهما إلى دائرة الفقهاء. ويبدو ذلك مبررا بالنسبة إلى صاحب القبر، فعبارة "الطالب" تشير إلى انه لم يزل آنذاك في مرحلة مبكرة من مسيرته العلمية وهو ما يحيل أيضا على موته وهو في مرحلة الشباب.

النص 2 (الصورة رقم 2)

المكان الأصلي : مقبرة الجناح الأخضر

المكان الحالي : مستودع أولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 293)

وصف المحمل : عمود اسطواني من الرخام الأخضر المشوب بالبياض والصفرة يبلغ ارتفاعه 57 صم قطره 55 صم، مبتور من طرفيه الأعلى والأسفل ويبدو انه كان يستعمل قبل الكتابة عليه كمحور تنسحب فوقه الحبال وهو ما يؤكده الحزوز الظاهرة عليه إلى الآن.

وصف النص : ورد النص مبتورا في 8 أسطر كتبت بخط غائر نسخي لين وغير منتظم ولا معجم

1. **[... حسبـ]ـي الله عـ[ـليه توكلت]**
2. **بسم الله الـ[ـر حمن] الرحيم**
3. **[قل هو نبا] عظيم انتم عنه معرضون هذا قبر الفقيه**
4. **[ا]بو محمد عبد الجليل ابن أبو (هكذا)**
5. **الفضل قاسم العوفي توفي شهد (هكذا)**
6. **الطاعون ليلة الاثنين الرابع سـ (هكذا)**
7. **لشهر شوال عام ثلاثة وسبعين و (هكذا)**
8. **ثمانمية**
9. **....................**

إن المصادر الإخبارية لا تذكر ولو عرضا اسم المتوفى ولا اسم والده وذلك برغم انتسابهما إلى دائرة الفقهاء.

النص 3 (الصورة رقم 3)

المكان الأصلي : مقبرة الجناح الأخضر

المكان الحالي : مستودع أولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 815)

وصف المحمل : عمود اسطواني من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعه 32 صم وقطره 14 صم، مبتور من طرفه الأسفل.

وصف النص : ورد النص مبتورا في 7 اسطر كتبت بخط بارز نسخي لين معجم ومشكول جزئيا.

1. **بسم الله الرحمن الرحيم**
2. **صلى الله على سيدنا محمد**
3. **كل نفس ذائقة الموت هذا**
4. **قبر ابي النصر بن القايد الاجل**
5. **ابي العباس احمد الجاموري ؟**
6. **توفي شهيد الطاعون في**
7. **.........................**

رغم اندثار التاريخ من هذه النقيشة وانعدام التفاصيل المتعلقة بالشخصيات المذكورة بها فانه بالاعتماد على أسلوب كتابتها وطريقة انجازها يمكن تأريخها بالقرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي. ذلك انها تشبه إلى حد كبير شاهدا على شكل عمود محفوظ حاليا بمستودع المعهد الوطني للتراث بالقيروان تحت رقم 215. وبرغم عدم توفر هذا الشاهد الأخير على تاريخ فان صاحبه هو ابن صاحب شاهد مؤرخ بسنة 833 هـ / 1429-1430 م[16]. كل هذه المعطيات تجعلنا نميل إلى نسبة الطاعون المذكور في النص إلى إحدى الموجات الوبائية التي تميزت، على حد قول الحسن الوزان، بالتقارب فيما بينها خلال هذا القرن[17] : 802-804 هـ / 1400-1402 م و815 هـ / 1413 م و846 هـ / 1443 م و857 هـ /1453 م، مع أرجحية نسبية لدورة 872-873 هـ / 1468-1469 م والتي خلدت على شواهد القبور القيروانية.

وأما صاحب القبر فهو غير مذكور في المصادر الإخبارية. وهو ينتسب إلى أب يحمل لقب "القايد الأجل". هذا اللقب يحيل على إحدى الوظائف العسكرية المتمثلة في قيادة المحلة في عهد الدولة الحفصية والتي ستتحول شيئا فشيئا إلى منصب يتماها وخطة الوالي أو العامل على مدينة معينة[18]. وتحتوي مدونة النقائش الحفصية التونسية على عدد هام ممن يحملون هذا اللقب. ففي لوح تذكاري بمسجد سيدي إلياس بمدينة صفاقس مؤرخ بسنة 852 / 1448 ذكر للآمر بالبناء "القائد الأجل المعظم الأكمل أبو عبد الله محمد بن القايد المقدس أبي البشر جاء الخير". وأما بمدينة تونس فتخلد نقيشتان مؤرختان بسنة 896 / 1490-1491 تجديد باب زاوية سيدي ابن عروس وبناء زاوية سيدي

---

[16] هذا الشاهد مندثر حاليا، انظر : ROY (B.) et POINSSOT (P.), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, 1983, n° 595, p. 131

[17] "ان الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات او خمس عشرة سنة او خمس وعشرين سنة ..." ,L'Africain (Jean-Léon) ***Description de l'Afrique***, Paris, 1956, p. 102.

[18] حول هذا اللقب انظر : BRUNSCHVIG (R.), ***La Berbérie orientale sous les Hafsides***, 1947, t. 2, p. 111-113.

الكلاعي قبالتها وذلك بأمر من الخليفة الحفصي وتحت إشراف أبي زيد عبد الرحمن المصري الحامل للقب "المزوار" في نقش الزاوية الأولى و"القايد" في نقش الثانية[19]. وأما في شواهد قبور هذه المدينة الأخيرة فقد بلغ عدد "القياد" المذكورين 17 شخصا ولكن غالبا دون صفات تشريفية موازية للقبهم باستثناء قائدين هما أبو عبد الله محمد المتوفى سنة 844هـ / 1441 م والذي اتصل لقبه بعبارتي "الشيخ" و"الأبسل" وأبو الفضل ابن الشيخ أبي النصر ابن الشيخ المقدس أبي عثمان سعيد الهنتاتي المتوفى سنة 883 هـ / 1478 م والذي تضمن لقبه عبارة "المكرم"[20]. ويبدو أن هذا الارتباط بين عبارات تشريفية مع أسماء مركبة من كنى وأنساب ونسب يوحي برفعة مكانتهم وعدم انتمائهم إلى صف الضباط الموالي الذين تولوا منصب "القايد" وتضاعف دورهم بمرور الوقت في الإدارة الحفصية. وبالاعتماد على نص ابن ناجي يبدو أن منصب "القايد" بالقيروان يعني بالفعل خطة "العامل" أو "الوالي" على المدينة. فهو يشير صراحة إلى استقراره بها وعدم سفره في المحلة وذلك في عهد السلطان أبي يحيى أبو بكر[21].

أما نسبة "الجاموري" فهي تحيل على ثلاث تسميات :

- "الجامور الكبير" و"الجامور الصغير" : وهما جزيرتان بالبحر الأبيض المتوسط تسميان حاليا "زمبرة" و"زمبرتا". وهما حسب ابن عبد المنعم "جبل في شرقي مرسى بحر تونس كبير غير معمور بينه وبين المرسى نحو سبعين ميلاً، وفيه بئر معينة وآثار قديمة وفيه يختفي عدو البحر إذا رام الوثوب على ما يستفرصه"[22]. وأما عند البكري فهما جزيرتان قبلي مرسى بونة[23]. وهما عند الإدريسي جبلان قائمان في البحر، بينهما سبعة أميال ويرسى بهما عند انقلاب الرياح[24]. أمام هذه المعطيات، من صغر في المساحة وفراغ سكاني على هذه الأرض، تبدو إمكانية نسبة "القايد أبي العباس الجاموري" إليهما بالمعنى الصحيح للانتماء الجغرافي أمرا مستبعدا، إلا إذا تعلق الأمر بإقامة مؤقتة في إطار الأعمال العسكرية، خاصة إذا علمنا أن خطة "القياد" اقتضت غالبا الانتماء إلى صف الضباط.

- "الجامور" الذي يعني في اللغة حسب ابن دريد و ابن منظور جُمَّارُ النخلة[25]. ولكن يستبعد أن يكون لنسبة الجاموري ارتباط بها إلا إذا تعلق الأمر باسم شهرة دال على شدة البياض كلون جُمَّارُ النخيل.

---

[19] انظر النقائش عدد 86 (ص. 192-194) و139 (ص. 302-304) و140 (ص. 305-306) في : ABDELJAOUAD (Lotfi), ***Inscriptions arabes des monuments islamiques des grandes villes deTunisie : Monastir, Kairouan, Sfax, Sousse et Tunis (2è s. / 8è s. - 10è s. / 16è s.)***, Thèse de doctorat nouveau régime, sous la direction de S. ORY, Université de Provence Aix-Marseille 1, 2001, t. 1er.

[20] انظر : El-Aoudi-Adouni (R.), *Stèles funéraires*, 1997, vol. 2, nos 397 et 465.

[21] انظر: الدباغ (ابو زيد عبد الرحمان الاسيدي) وابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم عيسى)، **معالم الايمان في معرفة أهل القيروان**، ط. 2، تونس 1993، ج. 4، ترجمة الجديدي العبيدلي عدد 362، ص. 125 "فلما وصل به لقيه قائد الأعنة المذكور (محمد بن عبد الحكيم) فقال : "بعثناك للقيروان قائدا وأرحناك من تعب السفر في المحلة، فظلمت القاضي، وفزعت عليه حتى خرج العبيدلي يدعو على مولانا أبي يحيى الذي قدمك ...".

[22] الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، دار السراج، الطبعة 2، بيروت ، 1980، ص. 157.

[23] البكري (أبو عبيد، ت. 784 / 1094)، **كتاب المسالك والممالك**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، ص. 759.

[24] الإدريسي (أبو عبد الله محمد)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق محمد حاج صادق، باريس، 1983، ص. 166-167.

[25] ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن، ت. 321هـ / 933 م)، **جمهرة اللغة**، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1987، ج. 1، مادة جمر : "جامور النخلة: جُمَّارُها" ، ابن منظور (محمد بن مكرم الأفريقي المصري)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، مادة "جمر" : "وجُمَّارَةُ النخل شحمته التي في قِمَّةِ رأسه ... والجَامُورُ كالجُمَّارِ وجَمَرَ النخلة قطع جُمَّارَها أو جامُورَها ... وشحمتها شبه ساقه ببياضها".

- "الجامور : عنصر التتويج. وهو مصطلح معماري مستعمل على وجه الخصوص في العمارة الإسلامية يقصد به الطابق الصغير المعقود الذي يتوج المآذن وتعلوه قبة هرمية أو نصف كروية الشكل. وقد يكون لهذه التسمية علاقة بمكان إشعال النار أو إحداث الدخان كلغة تخاطب عسكرية بين المنارات أو للإعلام عن بعض المناسبات أو الشعائر الدينية بين المآذن[26]..

2- طاعون 981 هـ / 1573 م

إن مدونة النقائش التونسية فقيرة من حيث عدد شواهد القبور الراجعة إلى هذا التاريخ. فهي لا تحتوي إلا شاهدين احدهما بتونس لا يشير إلى سبب الوفاة[27] والثاني بالقيروان يذكر الطاعون. ولكن لا تسعفنا المصادر الإخبارية بأي خبر عن هذا الطاعون. وربما يفسر هذا الصمت بأسباب ثلاثة :

- أولها انشغال هذه المصادر من ناحية بالأحداث الجسيمة آنذاك وما سيؤول إليه الصراع الاسباني العثماني آنذاك من تغير في المشهد السياسي بالبلاد
- وثانيها الطابع المحلي أو المحدودية الزمنية للوباء
- وثالثها التغير في النظرة إلى الطاعون وتوسع دائرة الأوبئة القاتلة المنضوية تحته حتى وان لم تكن واسعة الانتشار.

وتجدر الإشارة إلى أن الطاعون الأقرب إلى تاريخ نصنا ضرب بقوة مدينة البندقية في شهر جوان من سنة 1575 وتواصل بها إلى حدود سنة 1577 وكان مصدره القسطنطينية[28].

ومهما يكن الأمر، فإن كان طاعون سنة 891 هـ حقيقيا، فإن نصنا يمثل وثيقة فريدة لإدراجه ضمن الدورة الوبائية المتكررة بافريقية فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين (القرنين 14 و15 ميلاديين). وبناء على تاريخ النص الذي يشير إلى مطلع العام 981هـ / 1573 م (أوائل محرم)، فإنه يجدر بنا الرجوع بتاريخ هذا الوباء على الأقل إلى السنة السابقة له، أي إلى سنة 980 هـ (14 ماي 1572 – 2 ماي 1573).

الوثيقة (الصورة رقم 4)

المكان الأصلي : مقبرة الجناح الأخضر (كانت موجودة بزاوية المنوبية الملاصقة لجامع التوفيق داخل المقبرة)

---

[26] المقريزي (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت. 845 هـ / 1441-1442 م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1997، ج.6، ص. 199 : " .. ثم يرتفعان وذنب كل منهما بقدر جامور المنارة التي يؤذن عليها"، النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، 677-733 / 1278-1332)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، 2004 م، ج. 9، ص. 25 : "... وصفة العدة أنها صار قطعة واحدة، وبرأسه جامور، وقرية ثلاث قطع وقوسان، ..." ، ابن بطوطة (شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللّواتي، 704-779 / 1304-1377)، ***الرحلة***، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1964، ص. 341 : "... والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب، وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع...".

[27] انظر: El-Aoudi-Adouni (R.), *Stèles funéraires hafside*, 1997, vol. 2, p. 480, no. S 461.

[28] انظر : PRETO (Paolo), ***peste e societa a Venezia nel 1576***, Vencence Neri Pozza, 1978 ; ***Venezia e la peste, 1348-1797***, Comune di Venezia, Assessorato alla cultura e belle arti, Marsilio edotori, Venise, 1979.

المكان الحالي : مستودع أولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 784)

وصف المحمل : لوحة مستطيلة الشكل من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعها 72 صم وعرضها 50 صم.

وصف النص : ورد النص تاما في 12 سطرا كتبت بخط غائر نسخي لين غير منتظم ومعجم ومشكول. يحيط بالنص إطار على شكل محراب بعقد متجاوز يرسمه شريط تتخلله ثقوب دائرية وتحيط به زخرفة نباتية وهندسية.

النشر:

ROY (B.) et POINSSOT (P.), ***Inscriptions arabes de Kairouan***, 1983, n° 607, 148.

النص

1. بسم الله الرحمن الرحيم
2. صلى الله على سيدنا محمد
3. النبي الشـــ(ــفـــ)ــيع[29] واله وصحبه وامته
4. قل هو نبا عظيم انتم عنه معرضون
5. هذا قبر القاري الاكمل الاحفل الامام[30]
6. المرحوم أبي العباس احمد بن الشيخ
7. المرابطي[31] محمد بن الشيخ احمد
8. بن عبد الرحمن بن الشيخ محمد
9. بن الشيخ عبد الله بن الشيخ الولي
10. الصالح ابو محمد(هكذا) بن عبيد الغرياني[32] صاحب
11. زاوية شيخه الجديدي[33] توفي في اوايل
12. محرم شهيد الطعون (هكذا)[34] عام احد (هكذا) وثمانين تسعماية

لا توجد إشارة إلى صاحب النص أبي العباس احمد المتوفى سنة 981 هـ / 4-12 ماي 1573 في المصادر الإخبارية. ولكن النص على قدر كبير من الأهمية بالنظر إلى أنه يتطرق من جهة أولى إلى شجرة انساب ترقى إلى شخصية معروفة بالقيروان هو أبو سمير عبيد الغرياني صاحب الزاوية الغريانية الشهيرة الكائنة إلى اليوم داخل أسوار مدينة القيروان العتيقة قرب باب الجلادين. وتؤكد هذه النقيشة من جهة ثانية ما جاء في المصادر من أن

[29] نسيان حرف. الشفيع في قراءة روا و بونسو وزبيس.

[30] غير موجودة في قراءة روا و بونسو وزبيس.

[31] "الولي المرابط" في قراءة روا و بونسو وزبيس.

[32] "ابي محمد عبد الهاني" في قراءة روا و بونسو وزبيس.

[33] "صاحب زاوية سبخة الحريري" في قراءة روا و بونسو وزبيس.

[34] "الطاعون" في قراءة روا و بونسو وزبيس.

هذه الزاوية كانت في الأصل زاوية الجديدي شيخ أبي سمير عبيد الغرياني ومعلمه. وأبو عبد الله محمد الجديدي هو أحد فقهاء القيروان شيّد هذه الزاوية في القرن الثامن للهجرة (القرن الرابع عشر للميلاد) ولكنه توفي أثناء أدائه لفريضة الحج سنة 785هـ/1384م بعد أن استخلف عليها تلميذه أبو سمير عبيد الوافد من جبل غريان بليبيا. وقد ظلّ هذا الأخير يلقي دروسا في هذه الزاوية طوال عشرين عاما إلى حدود سنة 805هـ/1402م، ومنذ ذلك التاريخ أصبح المقام ثم المدرسة يعرفان باسمه[35].

3- طاعون 1199 هـ / 1784-1785 م

تذكر هذا الطاعون قبرية واحدة ورد نصها في صيغة شعرية مؤرخة بيوم الجمعة 12 ربيع الاول سنة 1199 للهجرة (23 جانفي 1785 ميلادي). وقد جاء تاريخها مفصلا ولكن بصيغة غير اعتيادية فيها موافقة للضرورة الشعرية. فيوم "عروبة" اسم كان يطلق في الجاهلية على يوم الجمعة[36] و"مولد المختار" يقصد به المولد النبوي الشريف الموافق لـ 12 ربيع الأول من السنة الهجرية. وقد سجلت السنة على شاكلتين ساد بينهما التطابق التام :

- الأولى بطريقة حساب الجُمّل حسب الجدول المغربي والتي قوامها جمع الأرقام المقابلة للحروف الواردة في النص بعد كلمة "تاريخه": "**يا جامع بنبينا امن علي السلمي في الموقف**"[37].
- الثانية بالارقام "سنة 1199".

وقد ظهر هذا الطاعون في عهد حمودة باشا وكان شديد الوقع على البلاد حتى عرف بالطاعون الكبير. ويذكر ابن ابي الضياف انه بدأ في سنة 1198 هـ / 1784[38]. وأما نهايته فكانت في شهر ذي القعدة من سنة 1199

---

[35] انظر: الدباغ (ابو زيد عبد الرحمان الاسيدي) و ابن ناجي (ابو الفضل ابو القاسم عيسى)، **معالم الايمان في معرفة اهل القيروان**، ط. 2، تونس 1993، ج. 4، ترجمة الجديدي عدد 382، ص. 226-241 وترجمة الغرياني عدد 390، ص. 252-261. انظر كذلك الجودي (أبو عبدالله محمد بن محمد بن صالح القيرواني، ت 1373 هـ / 1943 م)، **مورد الضمآن في ذكر المتأخرين من فضلاء القيروان**، مخطوط بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان : "وأما مدرسة الشيخ عبيد الغرياني أصلها للشيخ (الجديدي) ولما أراد السفر للحج أناب بها الشيخ عبيد الغرياني بعد تمنع".

[36] انظر: ابن دريد *جمهرة اللغة*، " أسماء الأيام في الجاهلية السَّبْت: شيار. والأحد: أوّل. والإثنين: أهْوَن وأوْهَد وأهْوَد. والثُّلثاء؛ جُبار. والأربعاء: دُبار. والخميس : مؤنِس. والجمعة : العَروبة، وربما لم تدخل الألف واللام فيها. قال القُطامي : نفسي الفداءُ لأقوامٍ همُ خلطوا ... يومَ العَروبة أوراداً بأورادِ ، وقال الآخر: وإذا رأى الرُوّادَ ظلَّ بأسْقُفٍ ... يوماً كيوم عَروبةَ المتطاولِ.

[37] **مجموع قيمة الحروف : ي (10) + ا (1) + ج (3) + ا (1) + م (40) + ع (70) + ب (2) + ن (50) + ب (2) + ي(10) + ن (50) + ا (1) + ا (1) + م (40) + ن (50) + ع (70) + ل (30) + ي (10) + ا (1) + ل (30) + س (300) + ل (30) + م (40) + ي (10) + ف (80) + ي (10) + ا (1) + ل (30) + م (40) + و (6) + ق (100) + ف (80) = 1199.**

[38] انظر ابن ابي الضياف (احمد)، **اتحاف اهل الزمان باخبار تونس وعهد الأمان**، تحقيق أحمد الطويلي ، الطبعة 3، تونس 1990، ج. 3، ص. 20-21." وفي سنة 1198 / 1784 م، وقع بالمملكة طاعون جارف وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير، مات بسببه أعيان من الحاضرة واثر في عمران البلاد نقصا فادحا ...". ويشير ابن أبي الضياف في السياق ذاته إلى وفاة شقيق حمودة باشا دون تحديد نوع المرض الذي أصابه : "وفي محرم سنة 1199 / 1784 م توفي أبو عبد الله محمد المأمون باي، شقيق حمودة باشا، بمرض أصابه وكان شابا حسن الأخلاق بادي العفة ودفن بتربة أبيه".

الموافق لشهر سبتمبر من عام 1785. ويبدو انه قادم من مصر التي ضربها منذ سنة 1197 هـ / 1783 م على اثر عودة الحجيج بعد محطة استراحة في ميناء الاسكندرية[39].

الوثيقة (الصورتان رقم 5 و 6)

المكان الأصلي : غير معروف

المكان الحالي : مستودع أولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 1010)

وصف المحمل : لوحة مستطيلة الشكل من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعها 00 صم وعرضها 00 صم.

وصف النص : ورد النص تاما في 12 سطرا كتبت بخط الثلث المعجم والمشكول. وقد انجز بتقنية الترصيع والتي قوامها نحت غائر للكتابة تحفر فيه ثقوب صغيرة يصب عليها الرصاص أو النحاس فينتج تناقضا بينه وبين لون الرخام. يحيط بالنص إطار على شكل محراب بعقد متجاوز يرسمه شريط تتخلله ثقوب دائرية وتحيط به زخرفة نباتية وهندسية.

1. بسم الله الرحمن الرحيم *** وصلى الله على سيدنا محمد
2. يا زائرا ذا القبر قف واستوقف *** واقرا له فاتحة واستعطف
3. وانظر لقوم قد غدوا تحت الثرا *** لمريد .... من المستنكف
4. كانوا كمثلك في الدنيا فكانهم *** لم يلبثوا الا كلمح المشرف
5. فانهد وعض وارفض سوى ما نافع *** في الخير يوم يطول المستوقف
6. واسئل (هكذا) ختاما بالشهادة مثل ما *** في ذي الضريح الاطيبي الاعرف
7. يدعى عطاء الله كان دراية *** بالعلم والنظم البديع المرهف
8. عدلا فقيها عارفا ومدرسا *** ومجودا اي الكتاب الاشرف
9. <u>قد مات بالطاعون يوم عروبة</u> *** <u>في مولد المختار</u> امن المخوف
10. فارحمه واغفر له ذنبه واسكنه في *** جنة الفردوس باللطف الخفي
11. تارخه يا جامعا بنبينا *** امن علي السلمي في الموقف
12. سنة 1199

---

[39] انظر: SEBAG (Paul), « **La peste dans la régence de Tunis au XVIIè et XVIIIè siècles**", *IBLA*, N° 109, 1965, p. 35-48 ; VALENSI (Lucette), «**Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale aux XVIIIè et XIXè siècles**», Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 24e année, N. 6, 1969. pp. 1540-1561.

إن صاحب القبر، عطاء الله، شخصية معروفة بالقيروان. فقد ذكره الكناني في ترجمته للمؤدب عطاء الله بن القلاق : "قال الحربي بقافين معقودتين اخبرني بعض أحفاده انه كان معلما للقرآن العظيم وكان لسانـــه لا يفتر عن التلاوة ودفن بداره الشرقية المفتح تجاه باب الخوخة احد أبواب مدينة القيروان وقبره بسقيفة داره المذكورة تجاه الداخل لها ولم أقف على تاريخ وفاته رحمة الله عليه ورضوانه لديه. قلت : وكان من أحفـــاده الشيخ محمـــود ويدعى عيـــادا كان في سنة 1244 سافر لتونـــس واجتمع بالشيخ الصالح الولـــي... وتوفي الشيخ محمـــود هذا في ربيع الثاني عام 1278 / 1861 م ودفـــن جوار جده المترجم له رحمه الله[40].

الخاتمة

إذا كانت الحفريات الأثرية للعهد الوسيط بالبلاد العربية لم تبح إلى الآن ببعض ملامح تاريخ الكوارث الوبائية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى مدن أوروبا (حفريات البندقية 2004 مثلا)، وذلك ربما للحرج القائم في مسألة التعامل مع هياكل موتى المقابر الإسلامية، فإن النقائش الجنائزية تسعفنا بما تتوفر عليه من معلومات تحتمل كثيرا من التأويل وقد ترقى إلى درجة التفرد أمام "تعذر" العثور على عناصر عظمية آدمية متعلقة بهذه الأوبئة أو كذلك أمام صمت المصادر الإخبارية كما هو الشأن بالنسبة إلى طاعون سنة 981هـ / 1573م. وتقف مجموعة النقائش القيروانية المدروسة في هذا المبحث دليلا قاطعا على هذه الإضافة من حيث تثبيت بعض تواريخ الطواعين وامتداداتها الجغرافية وتوثيق بعض وجهات النظر لدى المسلمين تجاه هذا الوباء سواء بالإعلان عنه أو تجاوز ذكره كسبب للوفاة، الخ.... وتبقى التساؤلات قائمة حول محتوى هذه النقائش وملابسات انجازها ومدى تأثر أساليب كتابتها بحالة الهلع والمعاناة، علما وأنها أحد مظاهر الكارثة أو على الأقل نتيجة تالية لها وقريبة منها في الزمن ؟

---

[40] الكناني (أبو عبدالله محمد بن صالح عيسى، ت 1292 هـ / 1875 م)، **تكميل الصلحاء والأعيان في أولياء القيروان**، تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس، 1970، ص. 46-48.



الصورة رقم 1 : شاهد قبر سنة 872 / 1469



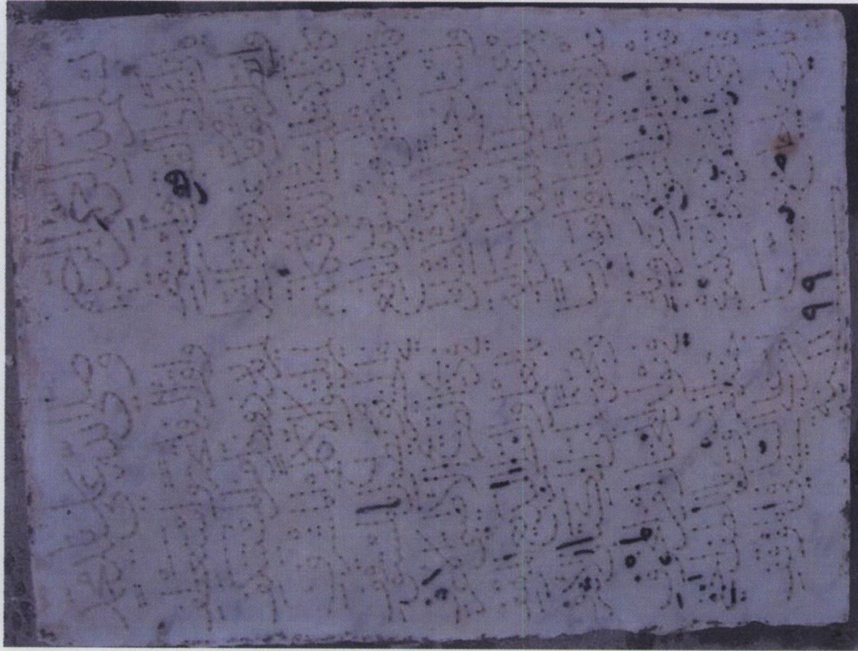
الصورة رقم 2 : شاهد قبر سنة 872 / 1469



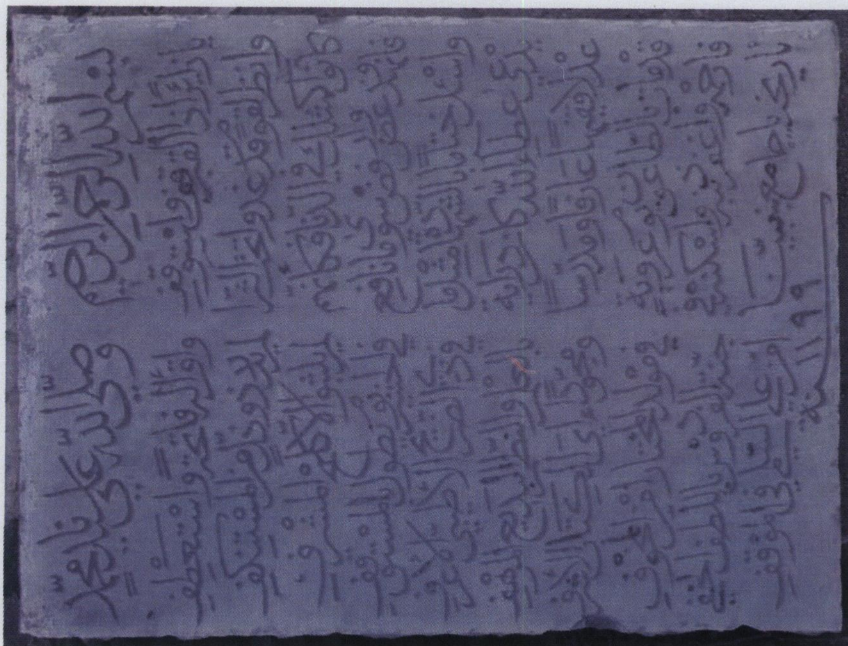
الصورة رقم 3 : شاهد قبر من القرن 9 هجري / 15 ميلادي



الصورة رقم 4 : شاهد قبر سنة 981 / 1573



الصورة رقم 5 : شاهد قبر سنة 1199 / 1784 – 1785 (النقيشة على هيأتها الحالية)



الصورة رقم 6 : النقيشة بعد ملء الكتابة الغائرة بدقيق الاسمنت الداكن الجاف

(هذه العملية تتم لغرض الحصول على صورة واضحة، ثم تقع إزالته بسهولة بالغة)